الرواية الثانية

ليلة غير سعيدة

*****

الفصل الأول

(سوار)

"عندما يودعك أحدهم تريد بقائه، لا تودعه، ابق صامتا، فصمتك قد يكون سببا في عودته يوما ما"

(ليلة سعيدة) هما آخر كلمتين سمعتهما بأذني، أو بالأحرى آخر كلمتين نطقت بهما شفتاه اللتان تعودتا على إخراج الكلام النقي، الكلام الذي يحلو صوته في كل مرة أقابله فيها ، صوت يتدفق من القلب الذي يدق كلما نظرت في عينيه، سأخبركم في نهاية قصتي عن أي الأشخاص أتحدث فهذه الشخصية مهما وصفت حلاوتها لن أنتهي من مديحها إلى أن أموت، أعرفكم بنفسي أولا ،أُدعى سوار ، هل تعرفون ما هو السوار؟ من الواضح أنكم شاهدتموه في معصم الفتيات كثيرا، أو شاهدتموه في أيدي وأرجل السجناء حتى يقيدهم جيدا ويمنعهم من الهرب.

هذا لا يهم كثيرا، فلو كان اسمي يحمل المعنى الجميل وهو التزين والتطيب فهذا شيء جميل، وإن كان التقيد والالتزام فإني أراه بعيدا عني تماما، فإنني لم أتقيد بأي شيء في حياتي، وسأخبركم بالسبب في نهاية قصتي.

أعيش في منزلي الكبير بحديقته الخضراء الواسعة مع عائلتي الصغيرة جدا أعني بعائلتي أنا ووالديّ فقط.

لم ينجب أبي أبناء غيري لأنه بخيل كما تطلق عليه أمي في بعض الأحيان، وهذا شيء طبيعي بين الأغنياء .ففي كل مدينة من مدن اليابان التي نعيش فيها لابد من وجود عشرات الأغنياء على الأقل حتى تقوم المدينة على أقدامها وتلبي احتياجات شعبها من خلال اغنيائها، والذي لا يعرفه الناس أن هذا الغني بخيل على عائلته المسكينة التي تدعي أنا وأمي

لا يهم فأنا لا أجلس مع والديّ الوقت الكافي لأتحدث معهما في أمور كهذه، أبي يخبرني بأن الأموال لا تنقطع، فإن احتجت أي شيء سيكون عندي في ثوانٍ، لا، لا أقصد أنه سيجلبه لي على الفور، بل سأذهب وأحضره دون أن أناقشه فيه، ولكن من مصروفي اليومي، يظنّ الجميع أن حياتي سعيدة مثالية بمجرد أن أروي لهم قصتي، لكن المخفي عن أعينهم هو أن حياتي تشبه الدجاج الذي يطارده ابن الخمس يحاول الإمساك بالدجاج للّعب معه لكن بمجرد أن يمسك الطفل بالدجاج سيقوم بقطع رأسه لا محالة، تبدو هذه نكتة بالنسبة لكم لكن فعلا هذه هي الحقيقة يبدو للجميع أن حياتي عبارة عن لهو ولعب، لكن بمجرد أن يمسكوا بي ويدخلوا عالمي سيجدون حياة مخبأة عن أعينهم، لا أعني بذلك أن ما يجري من ورائهم هو أمر سيء، بل أقصد أن الناس بطبعهم يحكمون على فئة معينة بصفة أو طبع يلزمونهم بهما أو يكون هذا الطبع أو هذه الصفة غير مرضي عنهما ، وهذا بالفعل ما حدث معي أنا وعائلتي، فقد حكم علينا البعض بأن أبي وأمي مترابطان جدا مع بعضهما البعض وأنهما مثال يحتذى به في اختيار شريك الحياة وقد أدى بهم أن يقذفوا هذا الحكم بسبب أن أمي تمسك بيد أبي عند كل مقابلة أو اجتماع يوجدان فيه، وهذا ما جعل البعض يطلق عليهما هذا الحكم رغم أنهم

لو دخلوا عالمنا الحقيقي لوجدوا أنهما يقومان بهذه الحركات رياء أمام الناس وأنهما لا يكفان عن المشاجرات في منزلنا المغلق.

هذا التفكك الأسري اعتدت عليه ولم يعد يهمني كما كان من قبل بل أصبح من الضروري أن أسمع هذه المناوشات ولو لدقيقة واحدة كل ساعة من اليوم، ودائما بعد كل مناوشة يأتي أحد طرفيها إلي ويقوم بالتحدث معي ليرى ما إذا كان معه الحق أم مع الطرف الآخر.

نعم، هذا شيء جيد، يستشيرانني في بعض الأمور حتى ولو كانت بلا أهمية، لكن هذا هو الطبيعي، أن فتاه مثلي بعمر ال ٢١ لابد من استشارتها والأخذ برأيها وهذا ما جعلني مصرة على أن أخبركم ما حدث معي في اليوم التالي.

لدى أمي العديد من الأصدقاء، ولكل منهم طفل او طفلان لأن اليابان دول مكتظ سكانيّا ،وإحدى صديقات أمي لديها فتاة تدعى أمل، هذه الفتاة أحببتها منذ أن التقيت بها، لا أعلم لماذا، لكن ما حصل في أول لقاء كان السبب في حبي لها ،الأم خيرية:

مرحبا بك يا سارة وبابنتك الغاليه أمل

سارة: أهلا بك يا خيرية، أين هي ابنتك سوار لأعرفها على ابنتي

خيرية: إنها في الداخل، كانت في انتظاركم، سأناديها حالا

أتت أمي إلى غرفتي، في الحقيقة كنت مستعدة لأقابلهم لكنني كنت أتاكد من أن كل شيء على مايرام حتى خرجت مع أمي لأقابل العائل الكريمة

سوار: أهلا بك في منزلنا المتواضع يا خالتي سارة

سارة: لقد أصبحتِ تفوقين الخيال بجمالك يا حلوتي، أعرفك بابنتي أمل

أمل: تشرفت بمعرفتك يا سوار

سوار :وأنا تشرفت أيضا، تعالي لأريك غرفتي.

دخلنا الغرفة وبدأنا بالنقاش الذي لايمل منه فعلا لم يكن يحتوي على أي فواصل فهذه الفتاة _ما شاء الله_ لا تسكت أبدا.

بمجرد أن تنتهي من موضوع تفتح موضوعا أكثر حماسا من الذي قبله وتجبرك بأسلوبها على الاندماج معها، بكل صراحة، أحببت الجلوس معها غير أنني وجدت صفات بها قد تشبه صفاتي، وهذا قد يحدث لأول مرة فأنا رغم أنني في ريعان شبابي إلا أنني لست اجتماعية بما يكفي وليس لدي أي أصدقاء إلا زملاء الجامعة .

كانت أمل تخبرني عن الشخص الذي أحبّته، وأنه معها في التخصص نفسه في الجامعة وأن قصة حبهما تفوق كل قصص الحب. أحببت بها الجانب المشرق الإيجابي وأحببت أكثر أنها فتحت قلبها لي وأخبرتني عن حياتها التي قد تبدو خاصة لا علاقة لي بها وهذا ما جعلني أثق بها وأحترمها أكثر وأحاول أن أفتح قلبي لها أيضا كما كانت تفعل

ودعتها هي وأمها الراقية ووعدتني بأن تأتي غدا إلى منزلي لتقلني إلى منزلها ونحتسي كوبا من الشاي في الصباح الباكر فوافقت بلا تردد.

مع سطوع أشعة الشمس الحارقة التي أحبها أيقظتني أمي في تمام الساعة التاسعة صباحا بكل هدوء

خيرية :ابنتي حبيبتي، هيا انهضي، صديقتك أمل تنتظرك في الخارج

سوار :لِمَ لم توقظيني من قبل؟ أحتاج بعض الوقت لأرتدي ثيابي وأكون على استعداد، أخبريها بأن تدخل وتنتظرني في الداخل .

دخلت أمل إلى البيت وسألتها أمي إذا كانت تريد "فنجانا" من القهوة لتبدأ به صباحها، فأخبرتها أمل أنها قد جهزت إفطارا مثاليا في منزلها وشكرتها على اقتراحها وكرمها. انتهيت مما كان ينقصني ونزلت إلى أمل في الطابق السفلي وركبنا سيارتها بعد أن ودعت أمي

أمل: كيف هو نشاطك يا فتاة؟

سوار: نشاطي سيتأقلم على نشاطك فإن أي شيء افتتح به يومي يؤثر على باقي اليوم

أمل: أفهم من هذا أن يومك سيكون جيدا هذه المرة

سوار :آمل ذلك

وصلنا إلى بيتها الفخم، وجدتها قد جهزت الإفطار الشهي الذي يفتح شهية المكتوم وجلسنا على الطاولة. بدأنا نأكل بعد البسملة والدعاء

سوار: لم أكن أعلم أنكِ طباخة ماهرة

أمل: لابد أن تعلمي، فإني خبيرة في الطعام

سوار: إذن سآتي كل يوم حتى أجرب أكبر عدد من الأكلات، لكن أريد منك أن تخبريني هل وضعتِ الزيت بدلا من الخل أم ماذا؟

أمل: هممممم، ولم الزيت والخل؟

سوار: ألم تقولي بأنك حضّرتِ هذه الاكلة؟

أمل: في الحقيقة، أمي هي من حضرتها، وأنا لا أعرف كيف تمسك المقلاة

سوار : هاهاها، في المرة القادمة سآخذ حذري منك يا لعوب

الفصل الثاني

(إشارة صفراء)

"كثيرا ما قال لي الناس ستندم إن فعلت كذا، أو من الأفضل أن تتراجع، لكن قلبي دائما ما كان يقودني للأمام ويقول لي "استمر"، وها أنا اليوم أملك مفاتيح النجاح"

نقاش حميم وقلوب صافية، هكذا كانت جلستنا قبل أن أعود إلى منزلي، جلسنا لفترة تكاد تكون طويلة، أحسست أني أعرفها منذ الطفولة بالأمور المشتركة بيننا وبالطريق المسلية التي تتحدث بها، وبعقلها الذي يزن ذهبا أتمنى أن نبقى معا للأبد. بعد أن عدت إلى البيت سمعت هذا النقاش بين أمي وأبي.

الأم : ألم أقل لك أن تخفض من صوتك عند التحدث معي؟

الأب : ومن أنتِ حتى أخفض صوتي

الأم : أنا زوجك التي تدللها أمام الناس، أم أنك تنساني بمجرد دخولك هذا البيت اللعين؟

الأب :تكلمي باحترام حين تكلميني.

استمر هذا الصراخ حتى ملّ صدى الصوت من الارتداد وطلبت من أذنيّ أن تتحمل القليل، فبعد لحظات سيهدأ كلاهما كالعادة، وطلبت من عقلي أن يستعد، فإن أحد الطرفين سيأتي ويستشيرني بالأمر رغم أنني لم أكن موجودة حين بدأ الصراخ، حدث ماتوقعته.

الأب: بنيتي، قرة عيني، أعلم أنكِ تنزعجين من الشجارات التي تحدث في هذا المنزل، لكن يا حبيبتي نحن متفاهمان وأنا أحب أمكِ فلا تفكري في يوم أننا عندما نتشاجر هذا معناه أننا نكره بعضنا البعض.

سوار: أعلم يا أبي لكنني اعتدت على هذا، افعل مايحلو لك ولتفعل أمي ما يحلو لها لم أعد آبه بأي أحد منكما

الاب :لكن أنا أريد أن أوضح لك شيئا.. الحق معي، أخبرتها بأن..

سوار: أبي، لا أريد أن أسمع أي تبريرات، حتى على الأمور التافهة أصبحتما تختلقان مواضيع ومناوشات، اتركاني وحدي وافعلا ما تجدانه مريحا لحياتكم المملة.

وبعد هذه الكلمات دخلت غرفتي وأغلقت بابي، لا لم أغلقه بل طرقته حتى يعلم أصحاب العقول أن في هذا البيت شخصا آخر يعيش معهم في هذا "السيرك" المضحك.

أمسكت بهاتفي المحمول أبحث عن أي شيء أكسر به قيود الملل. وبينما أنا في غرفتي دخلت على أمي

الأم :من سمح لكِ بالحديث بهذا الأسلوب مع أبيكِ؟

سوار: عن أي أسلوب تتحدثين؟ عن الأسلوب الذي تعلمته منكما؟ أم الأسلوب الذي ربيتماني عليه ؟

الأم : انتقي ألفاظكِ

وضربتني على وجهي وكأنها رأت حشرة أمامها

الأم: في المرة القادمة لست أنا من سيضربكِ هل سمعتِ؟

سوار: شكرا على حسن تربيتك يا أمي

أتى أبي بعد أن سمع أمي تصرخ

الأب : ماذا بكِ يا خيرية؟ هل ضربتِها على وجهها؟

سوار: نعم ضربتني يا أبي، إنها تؤلمني

الأب: أحسنتِ صنعا، في المرة القادمة أنا من

سيضربكِ يا سوار، هل سمعتِ ما أقول؟

و خرج من الغرفة وكأن الأجساد خرجت منها الأرواح. مكاني ليس في هذا المكان، مكاني في عائلة تحترمني وتقدرني، مكاني في منزل أمل ووالدتها سارة، لا أريد أن أكون ابنة "المليونير" فلان، أريد أن أكون ابنة شخص يعدّني فعلا ابنته، أنا يائسة من هذا العالم الذي لا يقدم لي أي اعتبار، أنا لا أعلم ما يجب علي فعله أنا لا أعلم من المخطئ، أنا لا أعلم أي شيء، ما هذه الحياة؟ هل هنالك أي جماد يسمعني؟ هل هنالك ذرة لجماد تسمعني؟ أريد أن أهرب إلى عالم يحبني، لا يضع المتراس في طريقي وحريتي، مازلت أتكلم مع نفسي، أهمس هذه الهمسات وهذا الصراع الداخلي حتى طُرق الباب، عقلي يصرخ (من هناك؟)، لكن قلبي يرتجف ويقول: (لا أريد أحدا)، لكنني لم أكن أتوقع أن ذاك الشخص هو من كان وراء الباب.

في البداية، كنت أتوقع أن تأتي أمي لتستسمحني، أو يأتي أبي ليهدئني، لكن لم أكن أتوقع أن تكون أمل هي من وراء هذا الباب . أتت أمل واقتربت مني شيئا فشيئا لكن الأهم من هذا هو الشعور النفسي الذي لا يظهر على الشخص من الخارج والذي لو انكشف هذا الشعور النفسي الداخلي على أحد لتغيرت أشياء شتى، المهم أن الشعور الداخلي

الذي كان يصرخ من الداخل هدأ بمجرد وجود صديقتي أمل، وهذا شيء لم أجد له أي تفسير حتى الآن، جلست بجانبي وأخبرتني أن هذا شيء طبيعي يحدث في كل البيوت، ولكن أخبرتني بسر عظيم لا أعلم كيف اطّلعت عليه. فقد أخبرتني أن هنالك أمرا مهمّا جدا في حياتي سيحصل بمجرد خروجي من هذا البيت وأن مكاني ليس في هذا البيت المخيف، وإنما في بقعة أخرى غير مشابهة لأي بقاع الأرض نهائيا ولن يساعدني أحد في الذهاب إليها وأخبرتني أن هذا المكان سيأسرني بداخله للأبد. سألتها ما إذا كانت تعرف هذا المكان لتدلني عليه، لكنها رفضت رفضا قاطعا وقالت: (ليلة سعيدة)

ما هذه الجملة التي كلما نطقها أحد لا أرى وجهه ثانية! هل هي كلمة محرمة أم ماذا ؟! بينما أنا في تفكيري العجيب، سمعت أحدهم يغني، وبصراحة اندمجت معه ومع الموسيقى الهادئة التي تشبه رنات الهاتف المحمول المتطورة المبهجة، بدأت أرقص، ولكن فجأة أصابني الذعر حينما وجدت نفسي نائمة، أمل تحاول إيقاظي. لحظة صمت دامت لخمس ثوان. لحظة.. أين أنا؟

أمل: أنتِ في منزلي يا سوار، وابتسمت ابتسامة صغيرة

سوار :ماذا أتى بي إلى هنا؟ ألم أكن في منزلي؟ أو بالأحرى كنا في منزلي؟

أمل: لا، لقد نمتِ البارحة في منزلي من شدة التعب ولم تعودي إلى منزلكِ حتى الآن

سوار: أفهم من هذا أنني كنت أحلم!

أمل: تحلمين؟ وبماذا حلمتِ؟

سوار :حلم طويل متعب لا تفسير له

في بداية الأمر لم أصدق أن كل ما حدث كان حلما، لكن عندها ابتسمت وانشرح صدري لأنه لم يحدث أي مما شاهدته. لكن بعد لحظات بدأ عقلي بمخادعتي، ما تفسير ذلك الحلم؟ بالتأكيد لكل سبب مسبب، ولكل فعل سبب جعل الفاعل يقوم بهذا الفعل، فما هو سبب ذلك الحلم أو بكلمة مشابهة لماذا أتى ذلك الحلم في هذا الوقت؟وما هو المكان الذي أخبرتني عنه أمل؟

حسنا، لقد شاهدت أبي وأمي يتشاجران عدة مرات، ولم يأتِ ذلك الحلم إلا هذه المرة التي لم يتشاجرا فيها .إنه فعلا أمر عجيب. أنا متأكدة أن هذا الحلم لم يكن مجرد حلم، وإنما حقيقة على شكل حلم وأن الأحداث التي ظهرت فيه سيأتي يوم وأتذكرها على أرض الواقع. هل يجب علي أن أروي ما حدث لأمل؟

لأنني كما قلت من قبل إنها تفهمني وتراعي شعوري وإلا لما وجدتها بجانبي في هذا الحلم الغريب، تساندني حتى في الحلم، أم يجب أن أحتفظ بهذا الحلم في قلبي إلى أن يأتي اليوم ويتحقق أمامي؟

لا أعني الأحداث التي ستتحقق، وإنما أقصد المسببات هي التي ستتحقق أمامي لا محالة.

المشكلة ليست هنا، المشكلة هي أننا بطبعنا لا نستعد لأي حدث إلا بعد فوات الأوان، أقصد أننا لا نصدر أي فعل، أو لا نخطو خطوة إلا بعد أن تكون الفرصة قد أوشكت على الانتهاء.

نحن بطبعنا ننتظر الفعل حتى نقوم برد فعل في اللحظة نفسها، أو بعد فوات الأوان.

لا نستعد، لا نتوقع الأسوأ قبل أن يأتي ، وهذا ما جعلنا محدودين في تفكيرنا، لا نطمح لشمول التفكير والاستعداد لأي لحظة تخبرنا فيها الحياة بأن الإشارة حمراء، لا، لدينا الإشارة الخضراء كالصفراء، والاستعداد ضغطنا عليه زر (حذف) من حياتنا ، وطبعا، لهذا سأستعد لما هو قادم، ولن أخبر أحدا بما حلمت به في الأمس.

*****

الفصل الثالث

(بداية البداية)

"عليك بنصيحة من تحب، لا عليك الإلزام وإنما الرفق ، ولا تناقش ذلك الشخص الذي إذا نصحته انفجر في وجهك كالنار الملتهبة، فالناس أعداء ما جهلوا".

تلك الليلة السعيدة التي قضيتها مع أمل كانت ذكرى لا تنسى، رجعت في الصباح بعد أن أيقظتني أمل علي رنات هاتفها التي كانت كموسيقى تصويرية لحلمي العجيب وعدت إلى البيت لكنني لم أجد أحدا، كنت جائعة وأبحث عن الطعام، أين أمي؟

ولِمَ لم تحضر الطعام !

حسنا، سآكل عند المطعم المقابل لمنزلي، نزلت من الدرج الطويل الذي لا ينتهي، وخرجت من باب المنزل العريض قاصدة المطعم.

بمجرد خروجي من باب المنزل وجدت مشهدا مخيفا، امرأة سبعينية تعبر الطريق، وذاك لص يختطف حقيبتها ويهرب، وهي تصرخ وتطلب النجدة. حسنا، لم أكن أنا النجدة، فأنا من من بحاجة إلى النجدة لتساعدني في البحث عن شعوري وإحساسي في تلك اللحظة، بينما هي تصرخ تصدمها "سيارة" صدمة جعلتها تنزف حياتها وروحها في تلك اللحظة، ولم يقف حتى صاحب السيارة بعد أن صدمها!

لحظة.. لحظة.. هذا حلم بالتأكيد، هيا قومي يا سوار من حلمك قبل أن تُقتلي بأرضك، ما هذا الذي أراه!

من المسؤول عن هذا كله!؟

ماذا فعلت هذه العجوز حتى تموت بهذه الطريقة!؟

حتى قتلوها بطريقة وحشية!

اسرقوا منها حقيبتها، لكن لم سرقتم حياتها بهذه الطريقة، أنا لا أفهم !

هل يعقل هذا !

بدأت أخاف على نفسي كثيرا، الجوع نسيني، لكنني نسيته منذ أن شاهدت جائعي القتل وجائعي المال، لكل بداية نهاية، ونهايتهم على يديّ، في الحقيقة لا أقصد يديّ، فأنا لاحول لي ولاقوة، أقصد أنهم سيواجهون نتيجة أعمالهم قريبا.

دخلت البيت مرة أخرى واتصلت بأمل التي تبعد عنا "الكيلومترات" القليلة .

سوار: أين أنت يا أمل؟

أمل: أنا في الشارع مع باقي الناس، هل شاهدتِ ما حدث؟

سوار: نعم شاهدته وأنا خائفة جدا

أمل: لا تخافي، كل شيء سيكون على مايرام.

هل أكلتِ؟

سوار : لقد أكلت كل الخوف والرعب يا صديقتي.

بضحكات خفيفة قالت: لقد انتهت حياتها هنا، وسيعاقب الفاعل بالتأكيد يا سوار.

سوار: آمل ذلك، العالم بدأ يأخذ مسارا جديدا ،مسارا مخيفا لا أعلم ماذا يطلق عليه، لكن عمليات السرقة والقتل أصبحت روتينا عند البعض، وأصبح أمرا طبيعيا أن يُسرق أحدهم بين الحين والآخر.

أمل: أعلم ذلك،ليكن الله حافظنا، سأحضر بعض الطعام وآتي إلى منزلكِ لنأكل معا.

بعد ما يقرب من نصف الساعة أتت أمل إلى بيتي حاملة الطعام الشهي الذي بمجرد أن رأيته أسرعت بأخذه، أكلنا الطعام بعد البسملة والدعاء وحمدنا الله على نعمة الطعام، وبعدها استأذنت أمل مني بالخروج لأن الوقت قد تأخر عليها وخرجت من الباب بابتسامة وهي تقول: (ليلة سعيدة).

عجزت عن الرد لما في هذه الجملة من معان في قلبي، حيث أنها تدق في قلبي دقا حين أسمعها .وبعدها خرجت من المنزل.

كل هذا حدث، ومع هذا لم يأتِ أي من والديّ إلى المنزل!

شيء غريب

عادة، تأتي أمي قبل أبي لتحضر الطعام، وبعدها بساعات قليلة يكون أبي في المنزل، لكن في هذا اليوم لم يأت أي منهما.

وفي الحقيقة سأخبركم بأمر قد يبدو سخيفا، لكنني بدأت أقلق عليهما بعدما حدث ما حدث في الصباح

لم أنم ولكن عينيّ عجزتا عن الصمود، فلم يكن يشغلهما أي شاغل عن النوم، لكن عقلي مازال يفكر أين سينام أبي وأمي في هذا الوقت المتاخر من الليل؟ الساعة التاسعة،

ليست بذاك التأخير، لكن الظلام غطى على جميع مناطق وبيوت اليابان، وفي الحقيقة أنا لا أحب ظلام الليل المخيف.

بينما أنا أفكر، سمعت باب المنزل يغلق ولكن بقوة.

أنا في الطابق الثالث، وباب المنزل في الطابق السفلي

من هناك ؟

وأصوات تهمس مع بعضها البعض، أسمع أصواتا، تذهب وتعود، من مِن الممكن أن يكون هذا الشخص؟!

لكنني أسمع أصوات مجموعة من الأشخاص، وليس شخصا واحدا.

هل النافذة قريبة من هنا؟

وكم تبعد عن أرض الحديقة؟

قدماي لم تحملانني للنهوض، لكن الأصوات بدأت تعلو شيئا فشيئا، بدأت أشعر باقتراب الأصوات مني .

هل تعرفون صدى الصوت الذي يرسل الأصوات مكبرة عند صعود الدرج؟

هذا ما كنت أسمعه، لكنني كنت أسمع أضغاث أصوات، همسات متداخلة مع بعضها البعض، وصدى الصوت يعكسها، لم أعد أميز الأصوات عن بعضها، وأنا على سريري مختبئة تحت اللحاف.

(اقترب) ..... هذا كل ما كان يشغل عقلي، عيني التي كانت تحاول النوم، تكاد الآن تغلق جفنها، إلى أن شاهدت خيال أقدامهم يصل عند باب غرفتي، كل ما فعلته أنني تظاهرت بالنوم وأغلقت عينيّ وفتحت أذنيّ وعقلي.

دخل الغرفة، أنا الآن مغلقة عينيّ لا أرى أي شيء، بدأت أصوات أقدامهم تزعج أذني، هل اقترب مني؟

بدأت ضربات قلبي بالتسارع، وأوردة جسدي ترسل القلق إلى قلبي، إنه يتجول حول غرفتي، ماذا يريد؟

لِمَ لمْ يقتلني؟ أو يسرقني حتى!

اقترب مني، أحسست به بجانبي، لم تمضِ لحظات حتى همس في أذن صاحبه وأغلق الباب، هل علي أن أفتح عينيّ؟ أم أنهم ما زالوا هنا؟

فتحت طرف عيني فلم أجد أحدا عند الباب ولا في الغرفة!

أنا لا أحلم، فأنا أشعر بكل لحظة الآن، أقدامي التي باعتني منذ قليل ساعدتني على النهوض، اقتربت من الباب، فسمعت أصواتا مألوفة، إنها أصوات أمي وأبي على الأغلب!

قتلني الفضول لأعرف ما الذي يحدث، فتحت الباب بخفة، فوجدت أبي يهمس،.

الأب: لا تخبئيها هنا، ابحثي عن مكان آمن

الأم: وأين برأيك هذا المكان؟

عن ماذا يتحدثان؟

ما هذا الشيء الذي يخبئانه؟

نزل كلا الوالدين إلى المطبخ، وما كان مني إلا أن لحقت بهما خطوة بخطوة رأيتهما وهما يخبئان شيئا ما تحت الثلاجة، وبعدها غادرا المطبخ متجهين إلى الغرفة، وبالطبع، من منا لم يخذله عقله قبل قلبه؟!

لكن عقلي خذلني مرارا وتكرارا، أحاول النهوض من أرض الواقع فلا تسعفني قدماي، وأحاول أن أنام فلا تغلَق عيناي، أما قلبي، فبالهوى يرتاح لا يشغله شغل الشاغلين، ولا يهتم لأمر الساهرين، فضولي كاد أن يطعنني في عقلي، لا أعلم ما الشيء الذي أتى بوالديّ إلى المنزل في هذا الوقت المتأخر من الليل، وجاء بهما إلى غرفتي ليتأكدا مني، ومن ثم همسا وذهبا إلى المطبخ ليبحثا عن مكان آمن، ما هذا الشيء؟!

وبالطبع دخلت المطبخ بعد أن تأكدت بأنهما دخلا غرفتهما، ومددت يدي تحت الثلاجة فوجدتني أمسك بشيء جامد، أخرجته من تحت الثلاجة وكانت مفاجأة غير متوقعة، لم أكن أتوقع أن هذا الشيء من الممكن أن يلامس يديّ في يوم من الأيام البشعة جدا، يا ليتني لم أسمع كلام عقلي المخادع الذي ظل يلاحقني كطفلة فضولية لا عقل لها، أجبرني على الإمساك بهذا الشيء القذر، الآن ستتغير حياتي ، ستتغير نظرتي للعالم من حولي، يا ليتني كنت حمقاء ولم أعلم ما الذي يحدث من حولي، وفور أن أخرجت يدي من تحت الثلاجة وأمسكت بهذا الشيء الجامد، وجدت أبي وأمي قد وضعا كيسا كبيرا من المخدرات والمنشطات القاتلة والتي تهوي بالعالم إلى الخراب المهترئ، هل يعقل هذا ؟!

أبي وأمي يشتركان في أمور قد تدخلنا السجن؟ أو حتى قد تهوي بنا إلى الهاوية؟!

لا أستطيع البقاء في هذا المنزل وإلا سينتهي بي المطاف بين أيدي العصابات التي يتعامل معها والداي، في الصباح الباكر سأجهز حقيبتي وأهرب على الفور وسأخبر أمل بكل ما حدث، وإذا لم تصدقني سأتركها وشأنها وأذهب لأبني حياة جديدة في عالم جديد، بعيدا عن أعين هذا العالم المخيف

الفصل الرابع

(أسرار مخفية)

"لا تحكم على شخص لا تعرفه بسبب من حوله، فكما في البستان الجميل أفاعي، كذلك في غابة الذئاب غزلان".

في الصباح الباكر مع تغريد الطيور الذي لا علاقة له بنفسية اليوم، لا تغريد الطيور ولا أشعة الشمس تغير نفسيتي، نزلت من غرفتي فوجدت أبي يقرأ الجريدة وأمي تحضر له الطعام والقهوة التي ستنشطه في يومه، لمَ لم يأخذ جرعة صغيرة من منشطاته؟

بدلا من هذه القهوة التي يتظاهر بها أمامنا أنه ملاك طاهر لا يعرف الهرج والمرج، يا لهذه الحياة ولهذا الواقع المزيف، يا لهذه النفوس الخداعة، بدأت أشعر أنني لست ابنتهما، بدأت أشعر أن عالمي هو عالم الأموات، أو حتى عالم النفوس الضائعة التي لا حياة لها سوى الضياع والهوان المسيطر على أجسادها، كفانا تصنعا يا أيها الواقع، كفانا كذبا أيها العالم المتوحش، كل النفوس تضمر حقيقة ثانية لا يعلمها حتى أصحابها، بدأت أنظر إلى أبي بنظرات دون وعي، صادمة أنظر إليه، وهو ينظر إلي، لم أكن على وعيي حين نظرت إليه، كنت أفكر وبشدة وهو ينادي علي مرارا وتكرارا، لكنني لم أسمعه، حتى أمي لم تفهم ما الذي يحدث حتى أتت وهزت جسدي قائلة: هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟

حبيبتك!

نعم أنا حبيبتك لكن لست ابنتك، أنتِ قلتها بنفسك قد أكون حبيبتك، وبعد فترة تكرهينني، هذا شيء طبيعي أما ابنتك، فالأبناء لا ينكرون آبائهم، ماذا عنك؟ هل نكرتِني أم بعد؟

هذا الكلام كله كان يخاطبني به عقلي، لم أسمع أي شيء مما قاله لي والداي سوى همسات.

سوار: كيف حالكما اليوم؟

الأب: نحن بخير، لكننا قلقنا عليكِ، هل كل شيء على مايرام؟

سوار: سيكون على مايرام.

الأم: هل ترغبين ببعض الحلوى مع القهوة الساخنة أم ماذا ؟

سوار: لا أرغب في أي شيء، سأذهب إلى الجامعة، فلدي أمور أهم

ذهبت إلى بيت أمل وطرقت عليها الباب حتى فتحت لي

أمل : سوار! كيف حالك يا صديقتي؟

لم أتمالك نفسي حين رأيتها ووقعت على الأرض باكية بكاء شديدا

أمل: ما بك يا سوار أخبريني

سوار: أمل أنا أحتاج إلى الحديث معك الآن، أنا خائفة

أمل: هيا، لنتحدث في الداخل

دخلنا إلى منزل أمل، المنزل الفاخر بمسبحه النقي الصافي، وجلسنا على طرف المسبح، وبعد أن هدأتني وأحضرت لي القهوة الساخنة

أمل: تفضلي، القهوة يا سوار، هيا أخبريني، ما بك؟

سوار: تريدين الحقيقة؟

لا أعلم ما الذي يحدث من حولي، لا أعلم ..... كل ما أعلمه أنني لا أعلم ..... ما هذه الفوضى التي تحدث في العالم !

أشعر أنني لست على قيد الحياة أنا أعلم أن الحياة جميلة ، وأن من في العالم هم من أعطوها جمالها، فلم هذا كله؟

أمل: اشربي قهوتكِ أولا ثم أخبريني ما حدث معكِ بالتفصيل

شربت قهوتي، وأخبرتها بما حدث في تلك الليلة، تعجّبَت بالتأكيد من الذي سمعته، لكن الأعجب أنها صدقتني، وأخبرتني أسرارا عنها لم أكن أتوقعها أبدا

أمل: في الواقع يا سوار، والداك هما سر حياتك، الحياة لا تدعى حياة دون الأهل، وخصوصا دون الوالدين،مهما فعلا سيتعلمان من الحياة والصعوبات التي سيواجهانها، لكن لست أنتِ من سيعلمهما، كل ما عليكِ فعله هو دعاؤك لهما في صلاتكِ وأن تطيعيهما في كل ما طلباه، لأن العائلة هي الشيء المشترك بين الحب والأمان، الأم والأب كلمتان لا يستهان بهما، ابحثي عن قلبك داخلهما، ستجدينه بالفعل، ثقي بنفسك ستجدين حياتك مع عائلتك، أكثر من أي أحد

لم أسمع هذا الكلام من قبل، حتى من عائلتي التي مدحتها أمل منذ قليل، لا أعلم إن كنت بالفعل سأجد قلبي أم أن قلبي باعني مثل حياتي؟

هذا كله لا يهم، لكن المهم ما فاجأتني به أمل أثناء الحديث، والذي لم أكن أتوقعه نهائيا .

أثناء الحديث مع أمل أشارت إلى بعض الأمور التي كانت مخفية عن أعين الناس، لكنها أخبرتني عنها ووثقت بي، وأخبرتني بأن يبقي هذا الموضوع سرا بيننا

أمل: في الحقيقة أنا لا أخبرك عن أهميه الأسرة من لاشيء، وإنما أخبرك من واقع حياتي كوني شخصا ناصحا لكِ فأنا في الحقيقة.....

سوار :في الحقيقة ماذا؟

أمل: أنا في الحقيقة ليس لدي أسرة.

سوار:هاهاها، ماذا تقولين؟.

أمل : هذه الحقيقة، فلقد تبناني والدي الذي هو في الحقيقة لم يكن والدي حينها، وهذه الأم، هي ليست أمي، أنا إلى الآن لا أعرف أين هي أمي أو أين هو أبي الحقيقي

سوار: هل أنتِ جادة؟

ولم تبناك إذن؟

أمل: أنتِ تعلمين بالطبع أن اليابان دولة كبيرة، وأن هذه المنطقة التي نعيش فيها هي ملك للأغنياء، وكان والدي كما ترين من كبار المدينة وأغنيائها، ومن قوانين هذه الدولة أنه من لم ينجب أطفالا _كما حدث مع أبي وأمي_ أن يتبنى طفلا حتى يرثهما وهذا ما حدث بالفعل، أسماني على اسمه وأصبحَت كل قوانين وأحكام المواريث تطبق عليّ، وها أنا ذا في بيتي، أملك أموال أبي المتوفى، أعيش مع أمي التي تدعى سارة، وهذا كل مافي الأمر.

سوار: شيء عجيب، هذا يعني أن خالتي سارة هي ليست أمك!

أمل: ماذا بك يا سوار؟ هاها، لقد أخبرتكِ بأنها ليست أمي الحقيقية، نعم.

سوار: أنا متعجبة جدا من الذي قلتِه، لكن لدي سؤال، هل يعلم حبيبك بهذا الشيء؟ أعني، هل أخبرتِه بهذا كله قبل أن يخطِبكِ من أهلك، الذين هم ليسوا أهلك ؟

أمل :ماذا تقولين؟ هم أهلي الآن، وأنا أعدّ نفسي ابنتهم، كل ما في الأمر أنهم تبنوني، ولنعد لموضوعنا الأساسي، لا لم أخبره بأي شيء، لكنني سأخبره عند أقرب فرصة.

سوار: لابد أن تخبريه بأقرب وقت، حتى لا يظنّ أنكِ تكذبين عليه طوال هذه الفترة

أمل: لا تقلقي سأخبره، أنا أعلم جيدا ما أفعله، فلا تشغلي بالك بأموري، اشغلي بالك الآن بما هو أهم، ماذا ستفعلين الآن ؟

سوار: سأذهب إلى الجامعة، فالأسبوع المقبل هو آخر أسبوع

أمل: حقا ؟!

هذا جيد، ومتى حفل التخرج من الجامعة؟

سوار: أظن أنه في بداية الشهر القادم، وعليكِ أن تأتي

أمل :بالتأكيد سآتي، لا تقلقي

سوار:هيا، أراكِ لاحقا، عليّ أن أذهب

أمل: إلى اللقاء يا سوار

ودعتها بابتسامة صافية من القلب، وذهبت إلى الجامعة بنشاط، فكما أخبرتكم، أي شيء يعدل مزاجي في الصباح، يبقى معي إلى آخر اليوم، لكن ربما كان هذا اليوم استثناء عن باقي الأيام، فلم يكمل النشاط والسعادة لآخر اليوم، فكالعادة، عندما عدت إلى البيت، العديد من الشجارات والمناوشات على الأمور التافهة، لكن هذه المرة كانت مختلفة، فبعد قليل سيأتي ضيوف في غاية الأهمية ليقابلوا والديّ، لكن الأمر بدا

صعبا لأن الضيوف أصروا على الحضور ولم يكن أي من أبي أو أمي مستعدا لمقابلتهم، لكنهما رحبا بهم على الفور، وهذا ما بدأ الشجار.

الأب: هيا، علينا أن نستعد في أسرع وقت ممكن

الأم: وماذا تراني أفعل، تكلم عن نفسك أولا

الأب: أنا جاهز، اذهبي وبدلي ملابسك، فإنها لا تعجبني

الأم: لا يهمني إذا لا تعجبك، فأنا لم أرتدِها من أجلك

هذه هي الحال في كل زمان، لا يستخدم أي منهما أسلوب (التطنيش) الذي يريح البال ويقتل الجدال، هذه المقابلة المهمة هي أهم الأسباب التي غيرت حياتي ١٨٠ درجة وجعلت مني شخصا مختلفا وأظن أنها سبب من أسباب وجودي في بيت أحلم فيه بمثل هذه الأحلام.

*****

الفصل الخامس

(رحلة! إلى أين؟)

"باستعدادك ستجد كل شيء سهل وبسيط، وسيصبح الاستعداد عادة تمكنك من تخطي الصعوبات"

في تمام الساعة السادسة والنصف، طرق السيد عادل وزوجه وابنته الباب وكنا على استعداد أنا ووالداي .دخل السيد عادل وعائلته إلى داخل البيت بسعادة وترحيب من عائلتي وجلسوا على الأريكة في صالة الضيوف، دخلوا في مواضيع شتى وأمور الشغل والشركة التي يعمل عندها كل من والدي والسيد عادل، وبعدها تناولنا العشاء مع بعضنا، وكل شيء كان على مايرام، إلى أن حدث ما حدث.

السيد عادل: أخبرني أحد العاملين أنك أخذت مبلغا مقدرا بـ٣٠٠ "مليون دولارا" من الشركة، هل هذا صحيح؟

الأب :من الأبله الذي اتهمني بمثل هذا الاتهام؟

السيد عادل: هذا يعني أنك لم تأخذ أي شيء؟

الأب: لا لم آخذ، وإذا أردت أن ألمس خزنة الشركة، كنت سأناقشك فيها، وهذا المبلغ كبير أيضا لا يستهان به.

السيد عادل: هل لي أن أكلمك على انفراد يا سيد ماهر؟

الأب(ماهر): سيد عادل، لا أحد يتهمني في منزلي، وأمام عائلتي.

السيد عادل: تعال معي يا سيد ماهر

ذهب أبي مع السيد عادل إلى زاوية في البيت، وبدأ كل منهما يلقي اللوم على الآخر، بالنسبة إلي، لم أعرف ما الذي كان يحدث، لكن خطر على بالي ذلك اليوم الذي خبأ فيه كل من أبي وأمي المخدرات تحت الثلاجة، وكانت بكميات هائلة، فقلت، ربما السيد عادل على حق، وقد يكون والدي قد سرق هذا المبلغ ليشتروا به كميات كبيرة من المخدرات، شيء محير، بدأ السيد عادل يفقد صوابه، وزوجه تحاول تهدئته، لكن لا فائدة، أبي أيضا قلده بتفكيره وبدأ يفقد صوابه، حتى أصبح البيت شجارا عارما، لا أريد أن أخبركم إلى أين وصل الشجار، لأنه ليس من المشرّف ذكره، لكن أبي طرد السيد عادل من بيته هو وزوجه وابنته، خرج السيد عادل من البيت وفي وجهه مائة تعبير، من تعابير الدهشة إلى تعابير الغضب إلى تعابير الانتقام، وعلى أبي علامات مخالفة لتلك، فعليه علامات التوتر والقلق، وبعض علامات الندم.

ما حدث بعدها كان متوقعا، فلقد فقد كل من أبي وأمي عقليهما، وبدأ أبي بالصراخ وأمي تتبعه بأسلوبه نفسه، وأظن أنكم عرفتم كيفية النقاش الذي يدور، لكن هذه المرة كانت مختلفة تماما.

الأب: هو من بدأ التطاول عليّ

الأم: أنت تعلم تماما من المخطئ

ثم نظر إلي أبي وهمس في أذن أمي شيئا لم أسمعه حتى التفتت أمي هي أيضا إليّ ودخلا غرفتهما، وهناك أكملا نقاشهما، وما كان مني غير أن لحقتهما إلى الغرفة لأسمع، أو بكلمة أخرى (أتجسس).

الأم: أنت المخطئ يا ماهر، منذ البداية نصحتك بألا نفعل ذلك

الأب :خيرية، أنتِ تعلمين جيدا أنكِ أصررتِ على شراء هذه المخدرات، وأنتِ أيضا تعلمين أنني لم أجد أي نقود تكفي لشراء المخدرات

سمعت ذلك بأذني، السيد عادل لم يكن مخطئا، والداي هما السارقان، كل هذا من أجل المخدرات التي توهم البشر بأنها هي الملجأ لكل هارب من المشاكل النفسية، وأنها هي الحل لكل الأمور والمعرقلات التي تواجه البشر، هذا بالفعل ما يحدث هنا، المهم أن كلّا من أبي وأمي يضع اللوم على الآخر، ولا أحد منهما يدرك أهمية الموضوع، ولا أحد منهما يفكر في المستقبل القريب، إن هذه الحياة علمتني الكثير، علمتني بأن آمالي وحياتي لا يصنعها غير الياء في آخر كل كلمة أنسبها إلي ..... أنا من أصنع حياتي، ولا تقف نجاحاتي ولا خططي على أحد من حولي، هي حياتي، هي لي أنا، لكل منا حياته.... حياة واحدة سيتحدث الناس عنها في مثل هذه العائلة الجميلة، بعدما يفضح أمرها سينظر الناس إليها نظرة استحقار واستهزاء، وينظرون إلى ابنتها التي تدعى سوار نظرات حقارة، دعوني أتخرج في جامعتي ثم افعلوا ما يحلو لكم، الذي حدث في تلك الغرفة كان متوقعا، وكنت أنتظره يحدث حتى أكمل بقيه حياتي كما توقعت وخططت لها، أكملا صراخهما في تلك الغرفة وأنا جالسة في الصالة أنتظر الحدث الأهم في مسيرتي .... وها قد أتى

أنا جالسة على الأريكة في صالة الضيوف، وأتى أبي بعد أن تشاجر مع أمي، لم أكن أعلم بماذا انتهى النقاش، أو بالأحرى هذا الجدال العقيم، لكن عندما أتى أبي قال: هيا يا سوار، جهزي أغراضكِ واتبعيني إلى السيارة

سوار: إلى أين يا أبي؟!

الأب: سنغادر المنزل

سوار: وأمي ؟

الأب: قلت لكِ تجهزي ولا تناقشيني

ذهبت دون أي كلام، دون أن أعرف السبب إلى غرفتي لأجهز أغراضي، وسمعت بكاء وعويل أحدهم، إنها أمي

لماذا تبكي هكذا؟!

انتابني شعور الحزن عليها والأسى على حالها، لكن أكملت بتجهيز أغراضي ونزلت إلى أبي، وأنا أنزل الدرج، ازداد بكاء أمي، لم يهمني كثيرا الأمر، لكن رق قلبي وارتجف بدني عليها حينما وجدتها أمامي وهي تبكي، لم أرها من قبل على هذه الحال، لم تصبني في مرة، رجفة كهذه، القشعريرة التي على جلدي، وجهها الشاحب وعيناها المملوءتان بالدموع كانتا سببا في انهياري بالبكاء، ودون أي سبب، احتضنتها، ولا أعلم لم، احتضنتها وكأنه حضن الوداع، (أمي، لم تبكين؟) كانت داخل رأسي تسبح، ولكن شفتيّ لم تنطقا بها، نظرت إلى الخارج، فوجدت أبي ينتظرني، وأنا مازلت أحتضن أمي التي تبكي، وأنا أبكي معها، بعدها أخبرت أمي شيئا ربما لم أخبرها إياه من قبل.

سوار: أمي .... أنا أحبك

لا أعلم لم قلت هذه الكلمات، لكن قلبي من أخبرها.

الأم: سوار، أحبك أكثر منك، سأبقى على تواصل معكِ، لكنني لا أتحمل بعدكِ عنّي.

سوار: تعالي معنا يا أمي، هل ستبقين وحدك هنا؟!

الأم: لا أستطيع أن آتي .... هذه فترة مؤقتة .... سيخبركِ أبوكِ بالتفاصيل لاحقا ،هيا اذهبي، وأتمنى لكِ ليلة سعيدة.

حتى أنتِ يا أمي!

لم أجبها بأي شيء، مشيت قدما نحو السيارة وركبتها، وغادرنا هذه المدينة المزعجة أنا وأبي، لكنني نسيت شيئا مهما، لم أودع صديقتي أمل!

يا إلهي

حسنا، سأكلمها حينما أصل إلى المكان الذي لا أعلم أين هو، في بداية الأمر توقعت أن والديّ قد انفصلا، أعلم أنه سبب تافه للانفصال، لكن ما الذي يجبر أبي على ترك البيت وترك أمي وحدها في البيت الكبير دون أي شريك، المهم في الأمر أنني طرحت على أبي الأسئلة نفسها، لأنني لم أجد أي جواب.

سوار: أبي، إلى أين الطريق؟

الأب: سنذهب إلى بيت صديقي المقرب لبضعة أيام

سوار: ولم هذا كله؟

الأب: سوار، يجب علينا أن نبتعد عن أعين السيد عادل هذه الفترة، فكما شاهدتِ، إنه رجل مجنون، وكل ردود الأفعال التي من الممكن أن يقوم بها غير متوقعة

سوار: ولماذا تركنا أمي في البيت وحدها إذن؟

الأب: حتى نوهم السيد عادل وأتباعه أن أحدنا في البيت

سوار: وماذا إن أصابوها بمكروه؟

الأب: هذه مشكلتها هي، هي مسؤولة عن كل تصرفاتها، لم تعد طفلة

هل يعقل ما قاله هذا الزوج

ألست أنت زوجها يا رجل!

يا لعقول الناس..

المهم أننا وصلنا إلى بيت صديق والدي الذي يدعى (حسام) ورحب بنا كل الترحيب، الغريب في الأمر أنه كان يسكن وحده في البيت دون زوج ولا أولاد، لا يهمني، الأهم من ذلك أنني أريد النوم بشدة بعد هذا اليوم المتعب، أردت الاتصال

بأمل، لكن أبي أخبرني بألّا أكلم أحدا هذه الفترة لكي لا يحدث أي مكروه، فلم يكن مني سوى الموافقة.

في اليوم التالي كنت أسمع حوارا بين اثنين في الخارج، من هذا الشخص الذي يكلمه؟ ولماذا أسمع اسمي في هذا الحوار؟

*****

الفصل السادس

(كيف حالك يا صديقتي؟!)

"عندما ينتهي المطاف بك مع صديق، أو حبيب ، لا تبدأ بالفراق، لا تبدأ بإنهاء كل ما كان بينكما، أعطه وردة حب وأخبره أنك ستمنحه فرصة لتصفية الأمور، لأنك ستندم إن لم تعطه فرصة لتصحيح أخطائه".

كان ذلك الرجل الذي يدعى حسام يكلم أحدا في الهاتف، وسمعت اسمي في الحوار، لا أعلم إن كان يتهيأ لي سماعه أم ماذا، لايهم، التجسس شيء بشع ولا أحب أن أتجسس، بعد أن استيقظت من النوم خرج هو ورفيقه ليحضرا بعض الخضروات والفواكه للبيت، جلست مع نفسي في البيت أفكر في المستقبل القريب، أمسكت بالهاتف واتصلت بأمل، لكنني وأنا أتصل تذكرت بأن أبي أخبرني بألا أكلم أحدا خلال هذه الفترة لكنني كنت قد اتصلت، ولا شيء سيحدث بمجرد أن أتصل، الأهم من هذا ما أخبرتني إياه أمل، والذي جعلني أتيقن بأن لا شيء يبقى على حاله، لابد أن تحدث مشكلة في كل يوم، نعم، فالمشكلة هي التي تعطي اليوم اسمه وجماله، ودون المشاكل تصبح الحياة كئيبة مملة، هذا هو الحوار الذي دار بين قلبي وعقلي بعد أن أخبرتني أمل بما حدث معها.

سوار: كيف حالك يا صديقتي اليوم؟

أمل: أنا على أسوأ ما يكون

سوار: ولم هكذا يا صديقتي؟!

ألا تعلمين أنني غادرت المنطقة؟

أمل: غادرتِها!

لم غادرتِها يا سوار؟

لا تكلميني بعد اليوم

سوار: لا يا صديقتي، غادرتها لفترة مؤقتة، سأخبركِ بالسبب.

وبعد أن أخبرتها بالسبب لم تصدق ما حدث.

أمل: ألم أقل لكِ إن الحياة تعيسة؟

بضحكات خفيفة قلت: أنتِ!

أنا من أخبرتكِ بذلك، لقد قلتِ بأنني يجب أن أعتاد على هذا الحال مع والديّ وها أنا ذا اعتدت وهذه آخر النتائج

أمل: أعلم ذلك، لكن لم أكن أتوقع أن هذا من الممكن أن يحدث، على أي حال، الدنيا كلها هموم، والأفضل هو من تجهز لمثل هذه الهموم، يتغلب عليها باستعداده لها لا بالحسرة عليها.

سوار: أمل، هل هنالك شيء تريدين إخباري به؟

أمل : نعم، هل تذكرين الشخص الذي أخبرتكِ بأنه يريد أن يتقدم إليّ؟

سوار:أجل، ماذا حدث؟

أمل: لقد انفصل كل منّا عن الآخر

سوار: ماذا تقولين!

ولماذا حدث ذلك؟

أقصد أن كل شيء يحدث بقدر الله، لكن ما السبب؟

أمل: لقد كنتِ على صواب، وكنتِ على حقّ، لكنني حمقاء.

سوار: أمل، أخبريني ما الذي حدث معكِ حتى أساعدكِ؟

أمل: لقد عرف أنني متبناة، وأن عائلتي الحقيقية غير معروفة حتى الآن، فظن أنني أكذب عليه طوال هذه المدة، وطلب مني أن ننفصل

سوار: ألم أقل لكِ يا أمل؟

أمل: أعلم أنكِ قلتِ لي، لكنني أخبرتكِ بأنني أنا أيضا سأخبره في الوقت المناسب

سوار: ولماذا لم يأتِ هذا الوقت المناسب يا ترى؟

أمل، نحن بطبعنا ننتظر الفعل حتى نقوم برد الفعل كما أخبرتك، لا نستعد لأي لحظة خطر، نحن نسوّف الأمور، نقول: غدا سأكون كذا، وغدا سأفعل كذا ويأتي الغد ويصفعنا على وجهنا صفعات الندم، حتى يشعر كل ابن آدم أنه كان على خطأ حين ترك الأمور مسوّفة، هل كان لديكِ أي رد فعل؟

أمل: نعم أخبرته بكل شيء.

سوار: وماذا عن الفعل الثاني؟

لم تتجهزي لأي فعل ثانٍ، يقوم به أليس كذلك؟ أحيانا رد الفعل الثاني قد يكون أهم من الأول، والآن ماذا ستفعلين؟

أمل: أنتِ قولي لي ماذا سأفعل، أنا عاجزة عن أي شيء.

سوار: لا شيء، قدّر الله وما شاء فعل، تعلّمي لغيرها.

أمل :أتعلم لغيرها!

نعم، فأنتِ لستِ في مكاني، لو أنكِ كنتِ في مكاني لكنت أعطيتكِ ألف حل بدلا من حللكِ هذا

سوار: حسنا أعطي لنفسكِ ألف حل إذن

أمل: أتستهزئين بي!

أشكركِ يا صديقتي الغالية أراكِ لاحقا.

وأغلقت الهاتف في وجهي، هذا جزائي ؟!

شكرا لكِ يا أمل، يا صديقتي، وبينما أنا جالسة على الأريكة في منزل السيد حسام طرق أحدهم الباب، في الحقيقة، ظننت أنه والدي مع السيد حسام لكنما إن فتحت الباب حتى ضربني أحدهم على رأسي وأغمي علي وسقطت على الأرض.

*****

الفصل السابع

(ابرة في كومة قش)

"لا تكن بخيلا مع من أحبك يوما ما، عائلة، صديق، حبيب، أكرمه، كن جميلا معه، فالصدقة لم تُخلق فقط للفقراء، وقد تكون بابتسامة تلبي احتياجات قلب من أحبك".

لم أحس بأي شيء بعدها، ولم أستطع أن أحرك أي مفصل من مفاصلي المتيبسة، كل ما سمعته وأنا في حال الإغماء هي أصوات غير مفهومة، من رجال لم تكن أصواتهم مالوفة لديّ، استيقظت من حال الإغماء، فوجدت نفسي محاطة بمجموعة كبيرة من الناس، كبار، صغار، شيوخ، أطفال، جميع الأعمار من حولي وأنا في زاوية الغرفة، غرفة صغيرة وضيقة برائحة تشبه رائحة البيض الفاسد، والأطفال يبكون والكبار يشكون، أين أنا؟

هل انا مخطوفه؟!

هذا السؤال الأول الذي سألته لنفسي، جاءني أحد يدعي (ليث)، كان أحد المخطوفين، قدّم إليّ خبزا ناشفا وألقى عليّ السلام.

ليث :مرحبا بكِ، ما اسمكِ؟

سوار: أنا اسمي سوار

ليث: سوار، اسم جديد، لم أنتِ هنا؟

سوار: أنا من عليه أن يسألك، أين نحن؟

ليث: في الحقيقة، من المؤسف أن أخبركِ بأنكِ مخطوفة هنا.

سوار: لقد أفدتني كثيرا، شكرا لمساعدتك، أعلم أنني مخطوفة، لكن من الذي خطفني؟

وماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

ليث: اهدأي، في البداية هذه مجموعة من المختطفين، مثل أي مختطفين، يجمعون الأموال من الناس بسهولة، يخطفون الأطفال والكبار وأبناء الأغنياء، حتى يهددوا الأسر والعائلات بدفع مبلغ مالي مقابل الرهينة.

سوار: وأنت، منذ متى وأنت عالق هنا؟

ليث: أنا من خطفت الناس

سوار: ماذا تقول!

اغرب عن وجهي.

ليث: ههه أمزح معكِ، أنا هنا مثلي مثلك، أتيت إلى هنا منذ يومين تقريبا، وأنا أنتظر الفرج.

سوار: ولم لم يحررك أهلك؟

ليث: لا أعلم السبب، في الحقيقة، والدي توفي منذ سنة ونصف، أنا أعيش مع أمي في البيت الصغير، ونحن لاحول لنا ولاقوة، أعمل في تصليح السيارات تحت منزلي، وكنت قد عقدت قراني على صديقتي، لكنني لم أكد أفرح بعقد قراني حتى خطفت.

سوا: وماذا فعلت خطيبتك؟

ليث: إنها هنا معنا

سوار: ههه حقا؟

ليث: ريماس، تعالي إلى هنا، هذه سوار

ريماس: تشرفت بمعرفتكِ يا سوار

سوار: اسمي سوار، وأنا تشرفت بمعرفتكِ أيضا، ما هذه الصدف، نتعرف على بعضنا البعض في غرفة صغيرة ونحن على هذه الحال.

ريماس: هل أنت من عائلة ثرية؟

سوار: ما قصدك؟

ريماس: أقصد أن المجموعة الخاطفة تستهدف هذه الطبقة من الناس، إلا لو أنكِ فعلتِ شيئا ما جعلهم يخطفونك.

سوار: في الحقيقة لا أعلم، لقد استيقظت منذ قليل، ولا أعلم ما الذي يحدث.

وبعد مرور ساعتين تقريبا،على هذا الحديث الممتع تعرفنا على بعضنا وأخذتنا المواضيع والأحداث وأصبحنا أصدقاء بهذه السرعة، لكن ما لفت انتباهي ذلك الشاب الخاطف الذي كان يقف مع أصدقائه الخاطفين، لا أعلم ما الذي لفتني به لكن لم أحدق بأحد مثله من قبل، دخل إلى الغرفة ونادى على اسم أحدهم، وأخلى سبيله بسبب تسديد الأموال المطلوبة من قبل أسرته المسكينة.

سوار: كم شخصا يتحرر في اليوم؟

ليث: تقريبا من ٦ إلى ٧

سوار: إنه عدد كبير مقارنة بمن هم داخل الغرفة.

ليث: أعلم ذلك، لكن في كل يوم يأتي شخصان أو أكثر.

إنه فعلا شيء عجيب، وأين مكافحة الجرائم من هذا!

أين المسؤولون!

أين البشر من هذا الفساد الذي يحدث!

هل الجميع يقبل بهذه الأعمال!

أم أنهم مغيبون عن كل ما يحدث في هذه الغرفة الصغيرة!

كنت أظنّ أنّني حرة طوال حياتي وظننت أن الشيء الوحيد الذي قيدني في حياتي هو اسمي (سوار)، لكنني الآن علمت أن السوار كله معلق فيّ وفي هذا السجن الصغير.

في يومي الثاني في هذا المكان الذي سأسميه بالسجن، وفي اليوم الثاني مع هذه المجموعة الخاطفة التي سأسميها باللصوص، لأنهم لا يسرقون أموال الناس فقط وإنما يسرقون قلوب الأهالي ويدمرون حياتهم، خرج العديد من المخطوفين وبقي خمسة أشخاص _تقريبا_ بالإضافة إليّ أنا وليث وريماس، بحثت عن ذلك الشخص الذي شاهدته بالأمس، الذي لفت انتباهي، وأردت أن أعرف اسمه على الأقل، وجهه لم يكن مثل وجه البقية، فوجهه وجه شخص ابن عائلة محترمة، وربما هذا ما لفت انتباهي، أقصد أن اللصوص عادة لهم "كاريزما" معينة يظهرون بها للناس، ولهم صفات محددة تعطيهم اسمهم وصفاتهم الملازمة لهم، أما هذا الشخص، لم يكن يشبههم، وجهه كان سمِحا شيئا ما، حزين، لا أعلم ما السبب، سألت ليثا وريماس عن اسمه، لكنهما لم يعرفا أيضا، وبعد لحظات، دخل شخص آخر إلى السجن، وكان عمره بين٢١ و٢٥، وعليه أعراض المرض، كان مخطوفا من قبل هؤلاء اللصوص، وهو يكون ابن أحد العاملين في القرية القريبة من المدينة، هو يتيم الأب كما قيل وأمه مريضة، طُلِبَ من الأم ان تعطي مجوهراتها التي ليس لديها سواها، فرفضت لأن هذه المجوهرات هدية

من زوجها المتوفى، فخطفوا ابنها تهديدا لها، وعذبوه فترة طويلة حتى مرض، وآخر المطاف رموه في هذا السجن معنا، وحاله جدا حرجة، صعبت حاله علينا، كان يلهث ويبحث عن الماء حتى سقاه ليث بعض الماء المتبقي من البارحة، طلبنا من اللصوص أن يعطونا سقية أخرى لكنهم لم يجيبوا، حتى أتى ذلك الشخص الذي لفت انتباهي، وهنا حدث بينه وبين ذلك الشخص المريض الحوار الآتي.

المريض: أرجوك ياسيد آدم، أنا أتوسل إليك، أمي مريضة ،ويجب أن أكون بجانبها الآن.

إذن، اسمه آدم، وهو على ما أظنّ المسؤول عمّا بداخل السجن.

آدم: قلت لك، اخرج من هذا الباب حتى تعطينا أمك المجوهرات، هل سمعت؟

أنت مخطوف هنا ولست في بيت جدك.

المريض: أنا أتوسل إليك سيدي آدم.

خرج آدم من الباب ولم يعره أي اهتمام يا لقلبك القاسي يا آدم، لكنني على الأقل عرفت اسمك، حسنا، الآن ماذا سأفعل في حياتي، هنا يجب أن أبحث عن طريقة للخروج من هذا السجن، بدأت أشعر أن روحي تختنق بمجرد وجودي في هذا المكان، وبدأت حال المريض تسوء شيئا فشيئا، حتى خشيت أن يموت، طلبت من ليث وريماس أن يذهب أحدهما لآدم فيترجاه ان يعالج المريض لكنهما خشيا على نفسيهما.

سوار: إذن، سأذهب أنا بنفسي وأخبره.

ليث: ستموتين يا سوار، أرجوكِ عودي.

سوار: لن أموت، لن يحدث أي شيء، على الأقل سأكون قد حاولت.

طرقت الباب حتى يسمعني اللصوص، وبالفعل أتى أحدهم قائلا:

ماذا تريدين يا هذه؟

سوار :أريد الحديث مع آدم

أدم مشغول الآن، ماذا تريدين منه؟

سوار: أخبره أني أريده حالا، الأمر ضروري.

أتى آدم وهو غاضب ويصرخ: ماذا تريدين؟

سوار :من فضلك، الرجل يموت في الداخل، دعنا نسعفه ومن ثم نرى ماذا سنفعل في مجوهرات أمه، إن روحه أهم من المجوهرات.

آدم: ومن أنتِ؟

لماذا تتدخلين في أمور لا تعنيكِ؟

سوار: أعلم ذلك، لكن أرجوك دعنا ننقذه، ثم افعل مايحلو لك.

آدم: أيها الحراس، أحضروا هذا الرجل إليّ حالا.

سوار: أشكرك يا سيدي

آدم: هيا أُغربي عن وجهي

لم أصدق أنه قبل ذلك!

لم أتوقع مطلقا أن يقبل أو حتى أن يسمع مني كلمة!

فعلا، المحاولة خير نجاح حتى وإن لم أنجح، كما قيل إن ذلك الذي وجد الإبرة من كومة القش قد تعب في البداية وكان إيجادها مستحيلا، لكنّه كما قيل، وجدها حقا

الفصل الثامن

(هل سأراه ثانية؟!)

"أحب دائما ان أسافر بأحلامي ، فهي تأخذني إلى أي مكان في العالم بدون تأشيرة سفر، لذا سافر بأحلامك إلى قلوب من أحببت".

بعد خروج ذلك المريض من الغرفة قلقنا عليه أنا وليث وريماس، لكن لم يدم ذلك القلق كثيرا، فبعد دقائق قليلة جدا وصلنا خبر أن المريض قد مات، هل يعقل!!

حتى لو عالجوه وذهبوا لعلاجه، لم يكن الوقت كافيا لعلاجه، ربما قد مات في الطريق ،لا أعلم، أو ربما هم من قتلوه، أيضا لا أعلم، لكن

لم يقتلونه وهم بحاجة إليه؟!

ذهبت إلى آدم وسألته: هل أنتم من قتلتموه؟

آدم: وما شأنكِ أنتِ؟

سوار: أخبرني، هل قتلتموه؟

آدم: لا، مات من نفسه

سوار: لن أترككم وشأنكم إذا علمت أنكم أنتم من وراء هذا يا قتلة

رجعت إلى ليث وريماس بعد أن تحرر الرهائن ولم يبق سوانا نحن الثلاثة في هذه الغرفة الضيقة، أتى يوم من الأيام وكان ليث يبكي في زاوية الغرفة، تعجبت من الذي رأيته، ماذا حدث لهذا الرجل حتى يبكي متخفيا؟!

هل من واجبي أن أسأله عن السبب؟ أم أنه سيحرج؟ لم أفكر كثيرا فقلبي تغلب على عقلي، وهذه طبيعة أغلب الشعوب، يتغلب القلب على العقل في أصعب المواقف، وفي المواقف التي تتطلب منا رحمة ولينا، نستغلها بطريقة خاطئة ونوهم أنفسنا على أننا عاقلون، ولا رحمة في أمور كهذه، ونخطئ التصرف، أما أنا فتصرفت تصرفا نابعا من قلبي وذهبت إلى ذلك الرجل وسألته.

سوار: ماذا بك يا ليث؟ هل لي أن أساعدك؟

ليث: لاشيء يا سوار، لقد اشتقت إلى أمي فحسب، لا أعلم ماذا تفعل دوني في هذه الفترة ولا أعلم بماذا تفكر في آخر الليل، ومن يحميها من هؤلاء الغدارين.

سوار: لا تقلق، كل شيء بخير، إن الله معها.

ليث: أنعمي بالله، لكنني أخاف أن يصيبها أي مكروه.

سوار: ادع الله لها، وكل شيء سيكون على مايرام.

لحظات، وحارس الغرفة يقول: ليث وريماس، تم دفع النقود من قبل عائلة ريماس، أنتم أحرار، لم أصدق وكأنني أنا من خرجت، لقد كنت سعيدة جدا من أجلهما، الفرحة كانت مرسومة على وجه ليث بألوان الأحمر والأخضر وألوان الحرية، ريماس كادت تطير من الفرح وتهتف: (أخيرا سنتزوج)، كنت سأبكي من أجلهما، كم الحرية شيء جميل! كم هو جميل أن نعيش بلا قيود، بلا سوار يقيدنا، بلا أمور تعرقل طريقنا، كم هو سعيد ذلك الطائر الذي يعيش على الأغصان، يطير بحثا عن الطعام!

فعلا، السلام والأمان والحرية أمور لا توصف بالكلمات، خرج كل من ليث وريماس من هذه المقبرة الحية بعد أن ودعاني وتمنيا لي كسر ذلك السوار.

ليث: لقد استمتعنا معكِ يا سوار

سوار: أنا أيضا يا ليث، لا تنسياني

ريماس: كيف لنا أن ننساكِ يا صديقتي، لقد أصبحتِ جزءا منّا.

سوار: أشكركِ يا ريماس، لقد اعتدت عليكما، أراكما لاحقا

ليث: إلى اللقاء يا سوار، ليلة سعيدة

لقد ذهبا، بقيت وحدي في هذا السجن، وحيدة بلا ونيس بلا حركة بلا صوت بلا صراخ بلا شجار ولا فرح ولا حزن ولا حياة

وفي آخر الليل دخل علي رجل أسود الثياب أسود الشعر طويل القامة، من هذا الرجل؟! وماذا يريد؟

لقد عرفته، إنه آدم، ولكن ماذا يريد مني؟

لا يوجد أحد سواي هنا

آدم: كيف حالك يا سوار؟

سوار: أنا بخير ماذا تريد مني؟

آدم: أريد التحدث معكِ

سوار: أخرجني من هنا، ونتحدث كيفما شئت، لماذا جئتم بي إلى هنا؟

ماذا تريدون؟

ردود فعله التالية لم أتوقعها منه، كيف له أن يقول مثل هذا الكلام؟

آدم :لدي سؤال يحيرني

سوار: ما هو؟

آدم: لقد أرسلنا لعائلتك أنك قد خطفتِ، فلم يجب أي أحد منهم.

سوار: الجواب هو أنني بلا عائلة

آدم: ماذا تقصدين؟

سوار: أقصد أن عائلتي لا تحبني، عائلتي بخيلة لن تقدم أي شيء مقابل حريتي، لقد بنيت نفسي بنفسي كنت حرة طوال حياتي ولم يتدخل أي أحد منهم في بناء مستقبلي، الشيء الوحيد الذي قيدوني به هو اسمي، لهذا لن يتدخل أي أحد في حريتي هنا، أنا أعد نفسي بلا عائلة، لا أحد يهتم لمشاعري، ولا أحد يحبني، حتى صديقتي المقربة تخلت عني في أصعب أوقاتها، فماذا لو كنت أنا في أصعب أوقاتي، هل تظن أنها ستتخلى عني؟

أم أنها ستأتي وتحررني على الفور؟

آدم :هل هذا يعقل؟

هل هذا كله مخبأ في شخصية مثلك!

من يراكِ من بعيد، يظن أنكِ بلا قيود وأنكِ تعيشين حياة كريمة هانئة مع عائلتك المترابطة الثرية لم أكن أتوقع أن الحياة ترينا أمورا وتخفي عنا أعظم، حتى أنا حياتي لم تعد حياة، ومن رآني اتهمني بالعدوانية والحقارة ولا يعلم ما وراء ذلك الوجه العبوس

سوار: وماذا قد يكون وراءه، حقد وكراهية وطمع.

آدم: أجل حقد، هي الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تصف حالي، بعد أن تربيت في دار الأيتام وكان والداي هما من وضعاني في الدار، تركاني هناك لأن والديّ لم يكونا يريدانني أساسا في الحياة، فقررا أن يتركاني عند بيت الأيتام، ولم يأت أي منهما لزيارتي

حتى، كنت أشاهد لحظات قاسية وصعبة، طفلا يحتضن والدته وأبا يعطي طفله حلوى، وأيادي العائلة متشابكة، أي نوع من الارتباط يسمى هذا!؟

لم حرمت من أهم ملذات الحياة؟

لم لم أرزق بعائلة سعيدة؟

عندما كان يسألني أحدهم ،أين والدك؟

كنت أتردد عند الإجابة، الآن أقولها بكل صراحة، أنا أحقد على جميع الأهالي وأريد أن أحرق دم كل أم على ولدها، وأقتل قلب كل أب على ابنته، مثلما حدث معي.

لقد حزنت عليه وعلى حاله فعلا الحياة بها الكثير والكثير الذي لا نعلمه، ونحكم على الناس دون أن نعرفهم أو نتحدث معهم.

سوار: لكن هل تعتقد أن هذا هو الحل الوحيد؟

لم لا تتسامح وتغفر؟

آدم: أحيانا يمكن للشخص أن يتغير ويصبح شخصا أفضل، ولكن لا يستطيع مسامحة غيره لشيء فعله سبب له أذى وألما كبيرين، لا يكون هذا العند صفة ملازمة له، لكن خطيئة الشخص تجبره على عدم مسامحته.

سوار: آدم، أنا أعلم أن ما حدث معك في حياتك ليس بالأمر السهل، لكن المسامحة لها طعم آخر، وحب الحياة له حياة أخرى، حاول أن تعيد حساباتك ،أنت لن تحصل على أي شيء بحقدك على العالم، لكن بحبك ومسامحتك ستجلب الكثير .... الكثير يا آدم، صدقني.

تأثرت معه في هذه الليلة كثيرا، نقاشنا لم يكن أبدا عقيما، فمع كل جملة أو كل صمت أرى في عينيه حزنا كبيرا كما رأيته أول مرة، لم أجد أي نوع من الحقد والكراهية على وجهه، كان يقولها بشفتيه وليس بقلبه، فقلبه متسامح كما شعرت.

عاد آدم إلى مكانه وتركني وحدي في الغرفة، الغرفة السوداء التي جلست أفكر فيها عن المزاج المتقلب، ماذا سيحدث في الغد؟

هل سأراه ثانية؟

وعن ماذا سنتحدث؟

كنت أسال نفسي أسئلة كثيرة حتى لا أنام ويأتي الغد، كنت أجهز بعض الأسئلة في مخيلتي، أسئلة كثيرة، فبعضها سينسى بمجرد وقوفي أمامه.

*****

الفصل التاسع

(العد العكسي)

"اسع إلى ما يقودك إليه عقلك، وافرش البساط بقلبك، اختر شخصا تحبه لتسعده، اختر شخصا تكرهه لتحبه، الحب شيء ثمين، لا يعرفه إلا من فقد لذة الحياة".

استيقظت من نومي، نعم لقد نمت البارحة نوما مريحا لم أذق طعمه من قبل. أرسل إليّ الحارس الطعام الذي كان خبزا وزيتونا، أكلته وحمدت الله على نعمه وبدأت أفكر، وبينما، أنا أفكر أتى آدم.

آدم :صباح الخير يا سوار كيف أصبحتِ؟

سوار: الحمد لله، أصبحت بخير

آدم: لقد تأخرتِ بالنهوض اليوم فما السبب؟

سوار: السبب أنني اليوم أنام وحدي في هذه الغرفة فلا أحد يزعجني.

آدم: هل أعد هذا أمرا جيدا؟

سوار: نعم بالطبع، أمر جيد.

آدم :حسنا، لن أبقى طويلا، فالزعيم سيأتي اليوم ليتحدث معكِ في أمر ما.

سوار: ومن هو الزعيم؟!

آدم :الزعيم هو الشخص المسؤول عن كل ما يحدث هنا، هو من أسس هذه المجموعة السرية.

بعد دقائق قليلة، وصل الزعيم، رجل ضخم ذو هيئة وقوام كبيرين، وصوته ضخم قوي، لكن لم يكن غريبا عني، لحظة .... أليس هذا هو .... لا أصدق!

هذا السيد عادل، مدير الشركة التي يعمل عندها أبي! هل هو الزعيم؟

السيد عادل: مرحبا يا سوار كيف حالكِ؟

سوار: أنا بخير، ماذا تفعل هنا يا سيد عادل؟

السيد عادل: من الواضح أنكِ تعلمين الآن لماذا أنتِ هنا، أليس كذلك؟

سوار: لا، ليس كذلك، لا أعلم، أخبرني أنت.

السيد عادل: في الحقيقة، بعد ذلك الشجار الذي حدث في بيتكم اللطيف، فكرت بطريقة يمكنني من خلالها الحصول على النقود التي سرقها أبوكِ، ولم أجد شيئا يمكنني أخذها به سواكِ، فمن المعروف أن عائلتكم مترابطة بشكل كبير، لذلك، نقطه ضعف أبيكِ عائلته.

سوار : أنت مخطئ يا سيد عادل، فإن نقطة ضعف أبي هي النقود وليست العائلة، لذا، إذا خيرته بين المال والأولاد، سيختار المال.

السيد عادل: هل أنت جادة؟!

سوار: بالتأكيد جادة، وإن لم أكن جادة، لما وجدتني هنا إلى الآن.

السيد عادل :أنت تكذبين، ولن أتركِ تخرجين من هنا حتى أستعيد نقودي، هل سمعتي؟

هذا ما حدث في الصباح، شيء غريب، لكن لم يكن بعيدا عن الأذهان، فلو أنني فكرت بها من قبل، فإن هذا الشيء متوقع، الحدث الأهم وهو ما حدث في آخر الليل، أتى آدم إلى الغرفة باستخفاف كما يفعل كل ليلة.

آدم: أخبريني ماذا قال لكِ الزعيم.

سوار: الزعيم كان صديق والدي ولكنهما تشاجرا وحدث ما حدث.

آدم: هكذا إذن، أريد أن أخبركِ شيئا، أنا أريد أن أساعدكِ في الهروب من هنا.

سوار: لم تقول هذا ؟

آدم: في الحقيقة، وبكل صراحة، لقد أشفقت عليكِ، وأريد مساعدتكِ.

في الواقع، أنا من أشفق على حاله وأريد مساعدته، لا أريد أن أخرج من هذا المكان حتى أشعر أنني ساعدته بشيء ما، لأنني فعلا حزنت على حاله.

آدم: سوار .... أريد أن أخبركِ بشيء ما.

سوار: أخبرني هيا.

آدم: سوار .... أنا أحبكِ.

هل يمكنك أن تعيد؟

ماذا قلت؟

لم أسمع ما قاله، أو سمعته ولكنني أريد أن أتاكد.

آدم :سوار .... أنتِ "شهرزاد" حياتي، منذ أن رأيتك أول مرة، عندما كنتِ تدافعين عن السجناء، تدافعين عن الحق ، أحسست بشعور بأن الحياة مازال فيها خير وحب

كما أخبرتِني من قبل، وأنّ الحياة بالتسامح والأمل هي حياة جديدة، وهذا ماجذبني إليكِ وإلى قلبكِ الصافي.

سوار: في الواقع، أنا فاقدة للنطق في هذه اللحظة، لا أعلم ماذا أقول، ولكن لا يجب عليك أن تقول هذا هنا، ألا ترى ما نحن عليه الآن؟

نحن في السجن، وأنت من اختطفني

آدم: أنا سأنقذكِ من هذا المأزق، وسأحاول إخراجكِ من هنا في أقرب وقت، وأنتِ ستنتظرينني في الخارج، وسنهرب معا

سوار: لكنني لا أريد يا آدم، أريد أن أساعدك أنت في عملك، أريد أن أراك سعيدا في عملك وفي حياتك، فإذا كنت تجد السعادة في عملك هذا، فسأساعدك فيه، ثم نهرب

آدم: لا، أنا أجد السعادة معكِ أنتِ، فمن فضلكِ، دعيني أساعدك

في الحقيقة، ما كان يحدث كان أشبه "بفيلم سينيمائي"،لكن هذا بالفعل ما حدث معي، من الطبيعي أنه هو الخاطف وأنا المخطوف!

لكن ما حدث هو العكس تماما، يا ليته كان العكس، فما كان يحدث كان خيالا، أنا أشفقت على حاله، وهو من خطفني وأشفق أيضا على حالي، لا أعرف ما اسم هذه الحال التي وصلنا إليها، لكن هذه الحال فعلا غريبة، ولا أعلم ما نهايتها، لكنها ستكون نهاية غير متوقعة أيضا، رجع آدم إلى مكانه وتركني في الغرفة كما جرت العادة، وكباقي الأيام، جلست أفكر في الذي حدث في هذا اليوم العصيب.

في يوم من أيام الشهر التالي، جاء أحد الحراس إلى الغرفة يسألني.

الحارس: هل هنالك شيء ما يجري بينك وبين آدم؟

سوار: وماذا قد يكون جرى؟

الحارس: أنا من يسألكِ هنا

سوار: لا، لا شيء

الحارس: شاهدته البارحة يخرج من عندكِ في آخر الليل.

سوار: نعم فلقد كنت .... أصرخ من شدة الألم الذي في رأسي، ولم يسمعني غيره.

الحارس: هكذا إذن، في المرة القادمة، أنا موجود عند الزاوية هناك

يا للهول!

كدت أقع في مشكلة كبيرة، يجب أن أخبر آدم عنها، في الليل، وفي وقتنا المعهود الذي لم يحدده أي أحد منّا، إنما واقعنا المماثل هو من حدد هذه المواعيد، أتى آدم إلى الغرفة، ولكن هذه المرة تختلف.

آدم: سوار، يجب أن أخبركِ شيئا.

سوار: أنا من سيخبرك، الحارس اليوم، ومن كلامه أحسست أنهم علموا بما يجري في هذه الغرفة، فأرجو أن لا تأتي هنا ثانية، لفترة وجيزة، حتى نرفع الشك عنّا

آدم: حسنا، لا تقلقي، سنقف جنبا إلى جنب حتى نتغلب عليهم يا سوار، هل رأيتِ في مرة سحابة صغيرة تمطر وحدها؟ دائما ما تكون الغيمة رفيقة لغيمة أخرى بجوارها، بمجرد أن تلتقيا، تمطران أمطارا غزيرة، وكلما كبر حجم الغيوم وعددهنّ، اشتدّ المطر، هكذا نحن، كلما كبر حبنا وتقربنا، أمطرنا حبا وسعادة على الحياة، فلا تيأسي، سنهزمهم، لكن الأهم من ذلك، أنني أريد أن أخبركِ بأننا سنهرب غدا، سأحاول أن

أجد حلا يصرف عنا الحراس، ثم تهربين أنت،وأنا سأتبعكِ فورا، وبعدها نغادر اليابان كلها.

سوار: آدم .... أنا خائفة

آدم: لا تخافي، كل شي سيكون على ما يرام.

(كل شيء سيكون على ما يرام) هذه الجملة نقولها بلا وعي لأهميتها، أصبحت المنجي الوحيد من كل المخاوف والمشاكل

.

*****

الفصل العاشر

(ليلة سعيدة)

"الشخص الذي يصر دائما على تذكيرك بمواقفه النبيلة معك وإظهار فضله عليك ، لا يصلح بأن يكون في قائمة مجتمع قلبك"

سوار: آدم، ماذا عن والديّ وأصدقائي هنا في اليابان؟

آدم : سوار، سنجد حلا لكل شيء، لكن الآن نحن في مأزق يجب أن نخرج منه أولا ثم نفكر ببقية الأشخاص، الزعيم عادل ليس بهين، إذا علم أي شيء عنا قد يقتلنا

سوار: أعلم ذلك، لهذا أنا خائفة

آدم: الأهم من هذا أن نهدأ الليلة ونفكر في الغد، وأنا سأتركِكِ تنامين، وغدا في تمام الساعة الخامسة عصرا سننطلق، اتفقنا؟

سوار: اتفقنا يا آدم

آدم: أحبكِ يا سوار، ليلة سعيدة

لم أستطع أن أنطق أي شيء بعد كلمة (ليلة سعيدة)، لم أستطع أن أقول أي شيء حتى ولو بالمثل، ولكن هذه الكلمة لم يقلها أي أحد وانتهت على خير، فبمجرد أن قالها جاء الحارس وقال: إلى أين يا صديقي، لقد وقعت بين أيدينا يا مخادع

وأتى الزعيم عادل وجميع الحراس

الزعيم عادل: ما عقوبة الخائن يا شباب؟ هل الإعدام خنقا أم بإطلاق النار؟

سوار: أرجوك يا سيدي، لم يكن يخونك، بل كان...

الزعيم عادل: سوار، لا تحاولي، فلقد سمعنا كل شيء، هيا يا شباب خذوه إلى غرفة الاعترافات.

لكنهم لم يمسكوا به، فبعد هذا الكلام حاول آدم الهرب من الباب الخلفي، لكن أحد الحراس أطلق عليه النار، ومن بعده، جميع الحراس أطلقوا النارعلى آدم.

المشهد كان مخيفا للغاية، المشهد كان مرعبا، أتذكرون "الفيلم السينمائي" الذي أخبرتكم عنه، لقد أصبح "فيلما" مرعبا، كابوسا يجول في رأسي في كل ليلة أنام فيها، لم تذهب تلك المشاهد عن بالي إطلاقا، لقد ذهب آدم، وآخر كلمتين نطق بهما (ليلة سعيدة)، هما آخر كلمتين سمعتهما بأذني، أو بالأحرى آخر كلمتين نطقت بهما شفتاه اللتان تعودتا على إخراج الكلام النقي، الكلام الذي يحلو صوته في كل مرة أقابله فيها، صوت يتدفق من القلب الذي يدق كلما نظرت في عينيه

ذهب ولم يدعني أخبره بأنني أنا أيضا أحبه، أنا أيضا أحببته من أول لقاء بيني وبينه، لم أكن أعلم أنه مع كل استقبال لابد أن يكون هناك وداع، لكن وداع آدم كان مختلفا عن البقية، بكيت في كل ليلة من تلك الليالي الحزينة، قصصت أجزاء من ثيابي حتى أجمع دموعي الغالية عند سقوطها

جاء الزعيم عادل

الزعيم: سوار، ستعملين معنا

سوار: اغرب عن وجهي، لا أريد أن أعمل معكم، أخرجوني من هنا.

الزعيم: حتى أخرجك لابد من أن تعملي معنا، مرة واحدة على الأقل.

سوار: وماذا أعمل؟ أسرق الأطفال؟ أم أسرق المصارف؟

الزعيم: نعم، تسرقين المصارف، هناك مصرف سيقوم بعمل احتفالية بمناسبة افتتاحه، وبما أن المصرف جديد فإنه على الأغلب سيكون غير منظم جيدا، فسيتسنى لكِ أن تسرقي المصرف.

سوار: ولم لا تذهب أنت وأتباعك لسرقته؟

الزعيم: وجودنا في هذه المناسبات في هذه الفترة هو أمر صعب، فإذا أردتِ الحرية اسرقي المصرف.

ما أجمل هذه الحرية التي تؤدي إلى الخراب لبعض الناس، ما أجمل الحرية بظنكم التي تبحثون عنها يا مجرمين.

سوار: حسنا، أنا موافقة.

الزعيم: ستكون المهمة غدا، الساعة العاشرة صباحا.

جاء اليوم التالي، اليوم الموعود.

الزعيم: سوار، أنا أثق بكِ، لكن إن فعلتِ أي شيء مخالف لما قلت لكِ ستجدين نفسكِ مع آدم.

هذه أمنيتي، أرسلني إلى آدم، أريد الحرية حتى ولو كانت بقتلي.

سوار: حسنا يا سيد عادل، لا تقلق، سأفعل أي شيء مقابل حريتي.

ذهبت إلى المصرف صباحا، وشاهدت الاحتفال واتجهت إلى المكان المطلوب لأسرق المصرف، في بداية الأمر كان صعبا، لكن بعد أن شاهدت الأموال، جمعتها على الفور وسحبت خطواتي خطوة بخطوة إلى الوراء، ذاهبة إلى باب المصرف، تأخرت بعض الشيء لكن، وأنا أخرج من الباب، صرخ أحدهم: (لص...لص..) فأسرعت إلى

السيارة التي بها الزعيم، لكن أحدهم أطلق النارعلى كتفي، لكنني دخلت السيارة، وانطلقنا، وصلنا إلى مكاننا المعهود (السجن) وأعطيت الأموال للزعيم، وبعدها أدخلوني الغرفة.

سوار: ألم تخبروني أنني سأجد حريتي بعد هذه العملية؟!

الحارس: انتظري دقيقة، سيأتي الزعيم، وبعدها ستقابلين حريتك.

انتظرت دقائق طويلة في الغرفة، لكن بعدها سمعت هذا النقاش.

الحارس: لم أفهم، لماذا يا زعيم؟

الزعيم: هذه الفتاة أصيبت في كتفها، هذا يعني أنها من الممكن أن تفشي سرنا في أي وقت، فيجب أن نتخلص منها.

سمعت هذا الكلام وحاولت أن أتظاهر بأنني لم أسمع أي شيء، دخل الحارس وقال لي: هيا، تعالي إلى هنا. ذهبت إلى الزعيم

وقال: أنا فخور بكِ يا سوار، سنشتاق إليكِ، أنتِ حرة الآن

سوار: أشكرك، ليلة سعيدة يا زعيم.

الزعيم: لكنه الصباح يا سوار، عن أي ليلة تتحدثين؟!

سوار: ستعرف بعد قليل.

أخذني الحارس بسيارته إلى منزلي القديم.

وجدت أبي وأمي ينتظرونني في الخارج وما أن رأيتهم أسرعت باحتضانهم والدموع تسيل كالنهر الذي لا ينقطع، أمي لقد اشتقت إليك، أبي لقد اشتقت للنظر في عينيك.

الأب: حمدا لله على سلامتك يا بنيتي، هل آذوك يا صغيرتي؟

سوار: لا يا أبي لكنهم قتلوا آدم..الأم: ومن هو آدم؟

سوار: هذا هو الشخص الوحيد الذي كان يساعدني في ذلك السجن المخيف، والجميع كان يحاول قتلي إلا هو.

و بعد أن أخبرت أمي وأبي عن قصتي في ذلك المكان وأخبرتهم عن حيلتي في القبض على المجرمين، حيث أنني أخبرت مدير البنك بأمر اللصوص وقاموا بما هو مطلوب، وأعتقد الآن تم القبض عليهم. تفاجأ أبي وأمي من الذي قمت به وابتسموا لذلك مع دمعات خفيفة رأيتها على وجه أمي لا أعلم سببها. وفي الليل الذي غطى عليه الظلام، كنت نائمة في غرفتي وعلى سريري، سمعت صوت أحدهم يأتي إلى غرفتي، من هناك؟! كنت أغطي وجهي حتى لا أرى، فما شاهدته في تلك الفترة أصابني بالرعب طوال حياتي، دخل الشخص واتجه إلي، ماذا يريد مني؟! أمسك باللحاف وأراد أن يكشفه عن وجهي، وأنا أرتجف، وأخيرا كشفه بسرعة فائقة، بدأت بفتح جفني شيئا فشيئا وكانت الصدمة. أمي! ماذا تفعلين هنا؟الأم: كل شيء سيكون على ما يرام يا بنيتي، لا تصرخي

سوار: أمي ما هذا الشيء الذي بيدك؟! هذه نفس الأدوات التي كان يستعملها اللصوص، من أين جئت بها؟!الأم: لا تخافي يا بنيتي، أنا أريد راحتك

و ضربتني ضربات عنيفة بهذا الخنجر أو السكين الرفيع، ما كان مني إلا أن صرخت صرخة صاخبة، البكاء هرب مني عندما سمعها، ارتجف بدني، أمي ماذا تفعلين، أنت تقتليني! وهي تبكي وتغرس في جسدي، أتى أبي يشاهد من بعيد، حتى أنت يا أبي! يا إلهي ما هذا الذي أراه، وانا أصرخ وقلبي يصرخ، يكاد قلبي أن يقتلع من مكانه،

ودموع أمي تنزل على وجهي فتختلط بدموعي. بعدها لم أشعر بأي شيء، وتوقف قلبي عن النبض وأغلقت عيناي..كانت سوار تعاني من مرض الوهام العقلي والذي يتسبب بتخيلها أمور لم تحدث وتتفاعل معها، وكانت تعاني من هذه الاضطرابات منذ فترة وجيزة، تخيلت فيها أشخاصا لم ترهم في حياتها وأماكن لم تزرها من قبل.

هل هذا يعني أنني لم أقابل أي أحد من تلك الشخصيات؟! حتى آدم! والسجن الذي أقمت فيه هل هو نفسه مشفى المجانين؟ لكنني لست مجنونة، أنا بالفعل قابلت تلك الشخصيات ومررت بكل تلك المواقف، لكنكم أنتم من لم تشعروا بها، ومرضي أنتم من أوجدتموه، لقد ولدت سليمة بلا علة، وبظلمكم وقهركم وتربيتكم الخاطئة وأسلوبكم الفاشل أنا هنا مريضة عندكم، أو مجنونة في نظركم، أنا أستطيع تخيل الأمور على الأقل لكنكم لا تملكون نظرة للتخيل حتى في الواقع،أسلوبكم المتوحش في الاعتناء جعلني أشعر أنكم لصوص لم تفكروا في مرة إن كنت أعاني، اعتبرتموني مجنونة فظننتم أنني لا أشعر ولا أتألم عندما تهملوني، اعتناء آدم كان يكفيني،على الأقل أنا ما زلت صغيرة ويمكنني أن أتعالج، لكنكم لن تزوروا الأماكن التي زرتها أو (تخيلتها) بنظركم، نعم لا تبك يا أمي فهذا هو حالي بسببك، أنتم أغنياء ولا يهمكم أي شيء سوى أن تعيشوا بسلام، تفكروا بأنفسكم ويغيب عن بالكم أنني ابنتكم، هيا يا أبي أكمل طريقك نحو المجد وابحث عن مكانتك بين أغنياء المدينة، كل ما عليكم هو غرس تلك الأداة في جسدي وتكملوا مسيرتكم، نعم هذه هي الحياة، وهذا هو الواقع، لكل منا حياة يخترها بنفسه، إلا أنا فأنتم من اخترتموها لي، سأكمل نومي الآن وغدا نكمل قصتنا، ليلة سعيدة

ملاحظة!

هنالك متلازمة مرضية تدعى "ليما" وهي حالة يصبح فيها الجناة أو المعتدون متعاطفون مع الضحية، فيطلقون سراحهم أو يساعدونهم بأي شكل من الأشكال، وهذا ما حدث مع آدم تجاه سوار.

و هنالك متلازمة مرضية أخرى تدعى "ستوكهولم" وهي الحالة النفسية التي تصيب الفرد وتدفعه للتعاطف أو التعاون مع العدو بعد تعرضه لأحد حالات الاضطهاد وهذا أيضا ما حدث مع سوار تجاه آدم.

""و هذا هو سر علاقة الحب السريعة بينهم في الرواية.""

*****